الإسناد وأهميته في نقد الحديث النبوي

الدكتور / محمد لقمان السلفي

١ ـ أثر الحركات الهدامة في وضع الأحاديث:

إن دخول أخلاط من الناس في الإسلام أوجد بين المسلمين بعد العصر الأول جماعات غير متشبعة بالمعنى الصحيح للإسلام، وبالولاء الكامل المطلق لله ولرسوله، وبالشعور الرقيق لمكانة القرآن وسنة الرسول ﷺ.

ولم يلفت الأنظار في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلا واقعة أو واقعتان. فلما كان آخر عهد عثمان بن عفان وجدت حركة سرية، للنيل من مكانة الصحابة والسنة النبوية لعلمهم أن الصحابة هم القوة الجبارة وراء الفتوحات الإسلامية. وأن السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن للإيمان والعقيدة والعمل الصالح.

وقد أصبحت قيادة الحركة في أيدي اليهود من جنوب اليمن وعلى رأسهم الخبُّ اللعين عبدالله بن سبأ.

وقد بدأ عملهم السرّي في المستوطنات العسكرية ـ أجناد المسلمين ـ في البصرة والكوفة والشام ومصر. ولم يكن يوجد في تلك المستوطنات من الصحابة إلا قليلون، فكان الجو ملائمًا جداً لإيجاد الخلايا الفاسدة ضد الإسلام[١].

كما أن قلة بضاعة النزل في تلك المستوطنات في العلم وبداوتهم ومايتبعها من الأمور الأخرى، كانت من أهم الأسباب لوقوعهم في فخ أولئك الماكرين الذين كانت إثارة الفتن هدفهم، وبيع الفساد دينهم وعقيدتهم[٢].

(١) راجع ابن خلدون ٢/١٣٨.

(٢) راجع ماذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/١٦١، ١٧٤.

وأولئك المتآمرون كانوا يعلمون جيدًا، أنه من الاستحالة في مكان التعرض للقرآن الكريم، كما كانوا يعرفون تمامًا أن الكذب لايمكن أن يصدر من الصحابة أو أن يروج بينهم(٣).

فالتجأ المتآمرون إلى أولئك الأخلاط من الناس، وأخذوا يضعون الأحاديث على أفواه بعض الصحابة الذين كانوا يذيعون عنهم بين أولئك الناس أن هؤلاء وحدهم كانوا على صلة مخلصة بالرسول ﷺ دون غيرهم من الصحابة.

ولذلك نجد الحافظ ابن حجر العسقلاني، يشير إلى أن حركة ابن سبأ إنما استهدفت الإساءة إلى مكانة الصحابة وإلى الأحاديث النبوية في وقت واحد.(٤).

وقد نقل الحافظ على لسان الشعبي: أول من كذب، عبدالله بن سبأ(٥)

٢ ـ الحركات تتقوى:

فلما توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانتشرت الفوضى في صفوف المسلمين، جمع عثمان رضي الله عنه، ولاة المناطق واستشارهم في الأمر. فقال بعضهم: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك(٦).

ولكن الوقت كان متأخراً. إذ الفتنة كانت قد أخذت مأخذها في رؤوس كثير من الناس.

٣ ـ المحاولة للقضاء على الفتنة:

وأخذت في الشدة بمر الزمن، وابتلي المسلمون بالحروب الأهلية وكاد المؤرخون أن يجمعوا على أن السبئيين هم الذين حوّلوا الصلح إلى الحرب ـ في وقعة الجمل ـ ثم استمرت الفتن، ووقعت حرب الصفّين، ثم حروب الخوارج، والسبئيون يعملون تحت الستار لنشر الأكاذيب.

---

(٣) قال أنس بن مالك: ولكنا لا يتهم بعضنا بعضاً (طبقات ابن سعد ١٢/٧، وتقول عائشة عندما سمعت عمر وابنه عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ يرويان حديث: (إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه): رحم الله عمر وابن عمر، والله ما هما بكاذبين ولا مكذبين ولا متزيدين (مسند أحمد ٢٨١/٦) ويقول عمر عن فاطمة بنت قيس: لا تترك كتاب الله وسنة نبيه لقول امرأة لا تدري أحفظت أم نسيت ولم يقل: أصدقت أم كذبت (أخرجه مسلم في باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها ١١١٩/٢ وأخرجه في باب ماجاء في المطلقة ثلاثًا لا سكنى لها ولا نفقة ٤٨٤/٣.

(٤) راجع لسان الميزان ٢٨٩/٣.

(٥) لسان الميزان ٢٨٩/٣.

(٦) تاريخ الكامل لابن الأثير الجذري ٥٧/٣.

وقد حاول علي رضي الله عنه أن يقضي على الفتنة، ولكن الأمور كانت قد فسدت إلى أبعد الحدود، فإن السنوات الماضية كانت كافية لبثّ الموضوعات والأكاذيب على لسان الرسول ﷺ بين أجناد المسلمين، خطب عبدالملك بن مروان مرة في المدينة فقال: قد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ولانعرفها(٧).

روى مسلم عن مجاهد قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولاينظر إليه، فقال: يا ابن عباس، مالي لا أراك تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنّا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بأذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف(٨).

والقرائن تشير إلى أن الحوار وقع في البصرة، عندما كان ابن عباس والياً عليها. ويبدو أن ابن عباس لم يكن وحده الذي حصل عنده رد الفعل، فإن استعمال كلمة الجمع (إنَّا كنا) دليل واضح على أنه وجدت في ذلك الوقت جماعة ترى هذا الرأي. وإلى هذا يشير مارواه الحاكم عن الحسن عما جرى بين عمران بن حصين رضي الله عنه وبين رجل طلب منه أن يحدِّثه بالقرآن فقط، فقال له عمران: أنت وأصحابك تقرءون القرآن، أكنت مُحَدِّثِيَّ عن الصلاة وما فيها وما حدودها؟ أكنت مُحدثِيّ عن الزكوٰة في الذهب والإبل والبقر وأصناف المال، ولكن قد شهدتُ وغبتَ أنت. ثُم قال فرض علينا رسول الله ﷺ في الزكوٰة كذا وكذا فقال الرجل: أحييتني، أحياك الله(٩). وقد أورده الخطيب في باب تخصيص السنن لعموم محكم القرآن وذكر الحاجة في المجمل إلى التفسير والبيان(١٠).

وإلى هذا يشير ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه (قاتلهم الله أي عصابة بيضاء سوَّدوا، وأي حديث من حديث رسول الله ﷺ أفسدوا)(١١). وروى مسلم

---

(٧) ابن سعد ٥/١٧٣.

(٨) مقدمة مسلم ٨١، ٨٢.

(٩) المستدرك للحاكم ١/١٠٩، كتاب العلم وصححه الحاكم وأقرّه الذهبي.

(١٠) الكفاية / ٤٦.

(١١) تذكرة الحفاظ ١/١٢.

عن أبي إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد علي، قال رجل من أصحاب علي: قاتلهم الله أي علم أفسدوا(١٢).

ولكن من المعلوم بالضرورة أن الإحجام عن الرواية، لم يكن الحل الصحيح للمشكلة، فإن الأحاديث النبوية دين وشرح للقرآن الكريم. ولذا كان لابد من الحلول الجذرية، ومن التقيد بأصول وقواعد تضع الحد من هذه الظاهرة الخطيرة وتنقِّح الصحيح من المكذوب. فظهر السؤال عن الإسناد.

٤ ـ أهمية الإسناد:

روى مسلم بسنده عن ابن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم. فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع، فلا يؤخذ حديثهم(١٣).

وقد روى نحوه ابن أبي حاتم(١٤).

وفي رواية أخرى لمسلم عن ابن سيرين قال: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم(١٥). وقد روى نحوه الخطيب في الكفاية والرامهرمزي في«المحدث الفاصل» بطرق عديدة، وابن عبدالبر في «التمهيد»(١٦).

وقد تدرج الأمر إلى الأمام، وأخذ الأئمة المحدثون يشددون في طلب الإسناد، فهذا الشعبي (بعد المائة) يروي عن الربيع بن الخيثم قال: من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. فله كذا وكذا وسمى من الخير. قال الشعبي: فقلت: من حدثك؟ قال: عمرو بن ميمون قلت: من حدثه؟ قال: أبو أيوب، صاحب رسول الله ﷺ(١٧).

---

(١٢) مقدمة مسلم / ١٢٩.

(١٣) مقدمة مسلم / ٨٤.

(١٤) الجرح والتعديل جـ ١ / ق ١ / ص ٢٨.

(١٥) مقدمة مسلم / ٨٤.

(١٦) الكفاية / ١٢١، ١٢٢.
والمحدث الفاصل / ٢٠٨ ومن صفحة ٤١٤ إلى ص ٤١٦ والتمهيد جـ ١ ص ٤٦ طبعة المغرب.

(١٦) المحدث الفاصل / ٢٠٨.

(١٧) معرفة علوم الحديث / ٦.

وما إن حَلَّ القرن الثاني، حتى صار السؤال عن السند ضرورة ملحة لاسبيل إلى إغفـالها. حدَّث عتبة بن حكيم: أنه كان عند إسحاق بن أبي فردة وعنده الزهري (١٢٥هـ) قال: فجعـل ابن أبي فردة يقـول: قال رسول الله ﷺ، فقال الزهري: قاتلك الله، يا ابن أبي فردة، ما أجرأك على الله، ماتسند حديثك. تحدثنا بأحاديث، ليس لها خُطم ولا أزِمَّة[١٨].

وقال ابن أبي الزناد: قال لي هشام بن عروة (١٤٦هـ): إذا حدَّثت بحديث، أنت منه في ثبت، فخالفك إنسان، فقل: من حدثك هذا؟

فإنّي حدّثت بحديث، فخالفني فيه رجل، فقلت: هذا حدَّثني به أبي فأنت من حدَّثك؟ فجف.[١٩].

وعن الأعمش (١٤٧هـ) قال: جالست إياس بن معاوية، فحدثني، بحديث، قلت: من يذكـر هذا، فضرب لي مثل رجل من الحرورية فقلت: إليَّ تضرب هذا المثل، تريد أن أكنس الطريق بثوبي، فلا أدع بعرة ولا خنفساءة إلَّا حملتُها؟[٢٠].

٥ ـ الإسناد ركن من ركني الحديث:

نرى من خلال الأخبار المتعلقة بالإسناد أن الأمر لم يعد هيناً، بل أصبح يعُتبر ركنًا من ركني الحديث النبوي، وأمراً من أمور الدين فقد روى مسلم بسنده إلى عبدالله بن المبارك يقول: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء[٢١].

وفي رواية أخرى يقول عبدالله: بيننا وبين القوم القوائم يعني الإسناد[٢٢].

وقال محمد: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال: قلت لعبدالله ابن المبـارك يا أبـا عبـدالـرحمن. الحديث الذي جاء: أن من البرّ بعد البِر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك قال: فقال عبدالله: يا أبا إسحاق: عمَّن هذا؟ قال: قلت له هذا من حديث شهـاب بن خراش، فقـال: ثقة، عمن قال؟ قلت: عن الحجاج بن دينار. قال: ثقة، عمن قال؟ قلت: قال رسول الله ﷺ قال

---

(١٨) المحدث الفاصل / ٢٠٩.

(١٩) المحدث الفاصل / ٢٠٩، الكفاية / ٤٠٣.

(٢٠) مقدمة مسلم / ٨٧.

(٢١) المرجع السابق / ٨٨.

(٢٢) مقدمة مسلم / ٨٩.

يا أبا إسحاق إن بين الحجاج بن دينار، وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي[٢٣] وعنه أيضًا: مَثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد كمثل الذي يرتقي السطح بلا سلَّم[٢٤].

وقال سفيان الثوري: الإسناد سلاح المؤمن فإذا لم يكن معه سلاح، فبأي شيء يقاتل[٢٥]. وقال الشافعي: مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل يحمل حزمة الحطب، فيها أفعىٰ تلدغه وهو لايدري.

ويمر الزمن ويستقر في أذهان الأئمة النقاد أن الإسناد جزء لايتجزأ من رواية الحديث، وانكبوا يفحصونه، وينظرون فيه بأسلوبهم المعين. قال الحاكم: لولا كثرة طائفة المحدثين على حفظ الأحاديث، لانْدَرَسَ منار الإسلام ولتمكن أهل الإلحاد والمبتدعة من وضع الأحاديث، وقلب الأسانيد[٢٦].

٦ ـ دور الرحلة في خدمة الإسناد:

ومن أجل أهمية السند في تلقي السنة الصحيحة، رحل المحدثون المسافات البعيدة، على بعد الشقة، وعظم المشقة، طلباً للحديث وبحثاً عن أسانيد الأحاديث بل عن إسناد الحديث الواحد.

ويبدو أثر الرحلة للناظر في أسانيد الأحاديث واضحاً جلياً. إذا ما تناولنا أي إسناد منها، ودرسنا تاريخ رواته، نجد في أغلب الأحيان أنهم ينتمون إلى أكثر من موطن. بل ربما وجدنا كل واحد منهم من بلدة، جمعت الرحلة في طلب الحديث شتاتهم، وقربت بُعدَ ما بينهم، حتى تسلسلوا في قرن واحد في سند الحديث الواحد(٢٧).

فهذا جابر بن عبدالله يشتري راحلة، ويسير من المدينة إلى مصر ليسأل عقبة بن عامر عن حديث في ستر المؤمن، لم يبق أحد سواهما سمعه من رسول الله ﷺ. ويؤكد له عقبة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من ستر مؤمنًا في الدنيا على خزيه ستره الله يوم القيامة، فيعود أدراجه لا يلوي على شيء.

---

(٢٣) الكفاية / ٣٩٣.

(٢٤) التدريب / ٣٥٩، فتح المغيث / ٣٣٥.

(٢٥) الخطة / ٣٧.

(٢٦) الرحلة في طلب الحديث / ١٧.

(٢٧) معرفة علوم الحديث / ٨.

وهـذا سعيد بن المسيب أحد كبار التابعين يقول: إني كنت لأسافر مسيرة الأيام والليالي في الحديث الواحد[٢٨].

ورحل شعبة بن الحجاج من أجل إسناد لحديث فضل الوضوء والذكر بعده. فإن أبا إسحاق السبيعي الذي سمع منه شعبة هذا الحديث مُدلِّس. ولم يكشف لشعبة عن حقيقة أمر الإسناد. وكان شعبة كثير العناية بتتبع المدلِّسين. فرحل تلك الرحلة المضنية، حتى توصل إلى نتيجة مؤسفة هي سقوط رواة من السند، أحدهم مطعون فيه. فلم يملك نفسه أن قال: دمر عليَّ هذا الحديث. لو صح لي هذا الحديث، كان أحبَّ إلَيَّ من أهلي ومن مالي ومن الدنيا كلها[٢٩].

٧ ـ أثر الإسناد في نقد الحديث:

وبهذا أصبح الإسناد للحديث مثل الأساس للبناء. واستقر في الأذهان أنه لايمكن تصـور الحـديث بدون الإسنـاد، كما لايمكن أن يتصـور البنيان بدون الأسـاس، والجسم بدون الروح.

فأصبح الحديث عبارة عن جزئين: الإسناد، والمتن. فإذا كان المتن واحداً. وله إسنـادان، فهـما حديثان في اصطلاح المحدثين، والحديث الذي ليس له سند ليس بشيء. ولـذلـك اشتهـر بين المحـدثـين: أن السند للخبر كالنسب للمرء. وجعله عبدالله بن المبارك من الدين فقال: الإسناد عندي من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء. فإذا قيل له: من حدَّثك؟ بقي (أي ساكتًا)[٣٠]. فكلما تقدم الزمن، وازداد الخلل، اشتد نظام المراقبة، واشتد نظام الإسناد.

وفي ضوء ماوصل إلينا من جهود المحدثين بصدد الإسناد وتهذيبه وتقييد قواعده، وتأصيل أصوله، يمكنني أن أذكر بعض آثار السند في نقد الحديث وتنقيحه، . وتمييز الصحيح من المكذوب والموصول من المنقطع، والمرفوع من الموقوف والمرسل، فأقول:

---

(٢٨) الرحلة في طلب الحديث / ١٤٩ / ١٥٣.

(٢٩) علل الترمذي الصغير مع شرح المبارك فوري ٣٨٨/٤ وتذكرة الحفاظ في ترجمة أبي الفتح محمد بن أحمد بن أبي الفوارس /١٠٥٤.

(٣٠) الكفاية / ٥٦، ٥٧.

١ ـ رُتِّبَتْ أسماء الرواة بحسب القوة والضعف ترتيباً، يكون هو الحكم في قبول الحديث وردِّه، فلا يُعَدُّ الحديث صحيحاً، إلا إذا كانت تتألف سلسلة الإسناد من أفراد يوثق بروايتهم.

٢ ـ ولم يروا الاحتجاج إلا بالحديث الموصول غير المنقطع الذي ليس فيه رجل مجهول ولا رجل مجروح[٣١].

وقد سُئل الشافعي عما تقوم به الحجة على أهل العلم، حتى يثبت عليهم خبر الخاصة، فقال: خبر الواحد عن الواحد، حتى ينتهي به إلى النبي ﷺ أو من انتهى به إليه دونه[٣٢].

فبالإسناد تتبين صحة الحديث ويظهر اتصاله من انقطاعه. وإذا كان هناك من رفع للموقوف أو وصل للمرسل لم يخفَ على المحدثين بفضل تتبعهم الدقيق لرجال السند.

٣ ـ ونظروا إلى أهل السنة، فأخذوا حديثهم، ونظروا إلى أهل البدع، فلم يأخذوا حديثهم[٣٣].

ومن هذا القبيل: الحديث الموضوع المروي عن أبي بن كعب مرفوعًا في فضل القرآن، سورة سورة، من أوله إلى آخره. فقد روى السيوطي عن المؤمل بن إسماعيل قال: حدثني شيخ به، فقلت للشيخ: من حدثك به؟ فقال: حدّثني رجل بالمدائن وهو حيٌّ، فصرت إليه فقلت من حدَّثك به؟ فقال: حدَّثني شيخ بواسط وهو حيٌّ، فصرت إليه فقال: حدثني شيخ بالبصرة، فصرت إليه، فقال: حدثني شيخ بعبادان فصرت إليه. فأخذ بيدي، فأدخلني بيتًا، فإذا فيه قوم من المتصوفة، ومعهم شيخ، فقال: هذا الشيخ حدثني فقلت: ياشيخ من حدَّثك؟ فقال: لم يحدثني أحد، ولكنَّا رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث[٣٤].

---

(٣١) الرسالة / ٣٦٩.

(٣٢) مقدمة مسلم / ٨٤.

(٣٣) تدريب الراوي / ١٨٨، ١٨٩.

(٣٤) والحديث هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فقال آمين. وخفض بها صوته (انظر الترمذي ٢/٢٨، والعلل لابن أبي حاتم ١/٩٣.

٤ ـ نصُّوا الحديث عن الثقة المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة عن مثله، حتى تناهي أخبارهم. ثم بحثوا أشد البحث، حتى عرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم كتبوا الحديث من عشرين وجهًا أو أكثر وأجروا عملية المقارنة بين تلك الروايات، حتى وصلوا إلى نتيجة صحيحة دقيقة.

ومن الأمثلة على هذا، ماذكره مسلم في كتاب التمييز قال: حدثنا محمد بن بشار، حدَّثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة عن سلمة بن كهيل قال: سمعت حُجرًا أبا العنبس يقول: حدثني علقمة بن وائل عن وائل عن النبي ﷺ وثنا إسحاق، أنا أبو عامر ثنا شعبة عن سلمة، سمعت حُجرًا أبا العنبس يحدث عن وائل بن حجر عن النبي ﷺ بهذا الحديث.

كلهم عن شعبة عن سلمة عن حُجر عن علقمة عن وائل، إلا إسحاق عن أبي عامر، فإنه لم يذكر علقمة. وذكر الباقون كلهم علقمة[٣٥].

قال مسلم: أخطأ شعبة في هذه الرواية حين قال: وأخفىٰ صوته أي بآمين[٣٦].

٥ ـ وضعوا أصولاً وقواعد لاستعمال السند استعمالاً علمياً دقيقاً، حتى أمكن الوصول إلى نتائج واضحة صريحة حول صحة الأحاديث أو ضعفها، وقد قسموا الإسناد إلى أقسام، وجعلوها على مراتب ودرجات من حيث القبول والرد.

قال شيخ الإسلام: يمكن للناظر المتقن ترجيح بعضها على بعض من حيث حفظ الإمام الذي رجح واتقانهُ. وإن لم يتهيأ ذلك على الإطلاق فلا يخلو النظر فيه من فائدة لأن مجموع مانقل عن الأئمة من ذلك يفيد ترجيح التراجم التي حكموا لها بالأهمية على مالم يقع له حكم من أحد منهم.

ولذلك نجد المحدثين جعلوا بعض الأسانيد سلسلة ذهبية واختلفت أقوالهم فيها.

فمنهم من جعل أصح الأسانيد: أحمد عن الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر. وقيل أصحها مطلقاً: الزهري عن سالم عن أبيه عبدالله بن عمر وقيل أصحها:

---

(٣٥) كتاب التمييز / ١٣٣ ـ ١٣٤ ثم ذكر رواية من حديث شعبة فيها ذكر الجهر بآمين وقال: أصاب فيها شعبة. ثم قال: تواترت الروايات كلها أن النبي ﷺ جهر بآمين.

(٣٦) تدريب الراوي / ٣١، ٣٢.

ابن سيرين عن عبيدة السلماني عن علي بن أبي طالب. وقيل أصحها: مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر[٣٧].

كما جعلوا بعض الأسانيد أضعفها، والبعض الآخر الإسناد الكاذب وقد نقل السيوطي عن الحاكم أمثلة عديدة لأوهىٰ الأسانيد.

فمثلًا أوهىٰ أسانيد ابن عباس مطلقاً: السُدّي الصغير محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عنه. قال شيخ الإسلام: هذه سلسلة الكذب لا سلسلة الذهب[٣٨].

٨ ـ استعمال الإسناد لرواية الكتب:

وكما استعمل المحدثون الإسناد لكل فرد من الأحاديث، استعملوه أيضًا لرواية الكتب. فالإسناد كان له التأثير البالغ على الكتب المروية من مؤلفيها. فإن كان الرجل عدلاً، قُبلت روايته للكتاب، وإلا فلا وهذا أمر معلوم بالضرورة، فإذا لم يكن مأمون الجانب، فقد يزيد وينقص وَيُغَيِّر ويُحَرِّف. قال الشافعي: ويكون المحدث عالماً بالسنة ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه. عدلاً فيما يحدِّث، حافظاً لكتابه إن حدَّث من كتابه، يُؤمَن من أن يكون مدلِّساً يحدِّث عمن لقي بما لم يسمع أو يحدث عن النبي صلى الله ﷺ بما يحدِّث الثقات بخلافه عنه عليه الصلاة والسلام[٣٩].

وقال القاضي عياض: وأما متى كان ممسكِ الأصلِ على الشيخ أو على القارىء غير ثقة ولا مأمون على ذلك أو غير بصير بما يقرأه. فلا يَحِلُّ السماع والرواية بهذه القراءة.

وقال أيضًا: وقد ضَعَّف أئمة الصنعة رواية من سمع الموطأ على مالك بقراءة «حبيب» كاتبه لضعفه عندهم. وأنه كان يخطرف الأوراق حين القراءة ليتعجل. وكان يقرأ للغرباء[٤٠].

---

(٣٧) المرجع السابق، راجع مبحث الحديث الضعيف / ١٠٥، ١٠٦.

(٣٨) المحدث الفاصل / ٤٠٤ ونحوه في الرسالة للشافعي / ٣٧٠.

(٣٩) الإلماع / ٧٦، ٧٧.

(٤٠) هو يحيى بن يحيى بن بكير بن عبدالرحمن بن حماد التميمي الحنظلي أبو زكريا النيسابوري توفي سنة ٢٣١هـ وترجمته في التهذيب ١١/٢٦٩.

وقال: ولهذه العلة لم يُخَرِّج البخاري من حديث ابن بكير[41] عن مالك إلا القليل، وأكثر عنه عن الليث. قالوا: لأن سماعه كان بقراءة حبيب[42]. وقد أنكر هو ذلك[43].

وعند الحديث عن الأخذ بالإجازة قال: ولمالك شرط في الإجازة أن يكون الفرع معارَضاً بالأصل حتى كأنه هو، وأن يكون المجيز عالماً لما يجيز، ثقة في دينه وروايته، معروفاً بالعلم، وأن يكون المجاز من أهل العلم متسمًا به.

وقال أبو عمر الحافظ: الصحيح أنها لاتجوز إلا لماهرٍ بالصناعة[44].

ولذلك تجد الكتب العلمية القديمة حافلة بالسماعات التي كان المقصود منها التدليل على أن الكتاب صحيح، وليكن الاعتماد عليه، لكون الذين نقلوه إلينا بالسماع ثم الكتابة هم علماء عدول، حملوا الأمانة، ثم أدوها إلى من بعدهم كما هي.

٩ ـ الإسناد من اختصاص المسلمين:

وبهذا تبين أن الإسناد نعمة من نعم الله خصَّ بها هذه الأمة ولذا قال أبو حاتم الرازي: لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم، أمناء يحفظون آثار الرسل، إلا في هذه الأمة[45].

وقال محمد بن حاتم بن المظفر: إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة وشرَّفها وفضَّلها بالإسناد. وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، إنما هو صُحف في أيديهم. وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم[46].

وقال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله: وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد ﷺ وجعله سُلَّماً إلى الدّراية. فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأثرون

---

(٤١) هو أبو محمد حبيب بن أبي حبيب، كاتب مالك بن أنس. قال عنه أحمد: ليس بثقة. وقال ابن معين: كان حبيب يقرأ على مالك وكان يخطرف (يسرع) بالناس يصفح ورقتين ثلاثا. قال يحيى: كان يحيى بن أبي بكر سمع من مالك بعرض حبيب وهو شر العرض. وقال أبو داود: كان من أكذب الناس. قال ابن حبان كان يروي عن الثقات الموضوعات (المجروحين، تهذيب التهذيب ٢/١٨١ الجرح والتعديل ١/٢/١٠٠. الميزان ١/٤٥٢).

(٤٢) الإلماع / ٧٨.

(٤٣) الإلماع / ٩٥.

(٤٤) شرح المواهب اللدنية ٥/٤٥٤.

(٤٥) المرجع السابق ٥/٤٥٣.

(٤٦) مجموعة الفتاوى ١/٩.

به المنقـولات. وهكـذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات. وإنما الإسناد لمن أعـظم الله عليه المنَّة أهل الإسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم. وغيرهم من أهل البدع والكفار، إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد وعليهـا من دينهم الاعتـماد، وهم لايعـرفـون فيهـا الحق من الباطل ولا الحالي من العـاطـل. وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة، فإنَّ أهل العلم منهم والذين هم من أمرهم على يقين. فظهر لهم الصدق من المَيْن كما يظهر الصبح لذي عينين(٤٧).

وهـذا تحقيق عظيم لم يسبق إليه شيخ الإسـلام ـ رحمه الله ـ إذ استنتج من كون الإسنـاد من خصـائص المسلمـين، أن ماليس من الإسـلام الصحيح من العقـائد والآراء، فإنه لا سند له يعتمد عليه، وإنما هي أقوال بلا دليل ومنقولات بغير إسناد.

وقد فصَّل هذا الكلام الإمام الأندلسي أبو محمد علي بن ابن حزم رحمه الله في كتابه (الفصل في الملل والنحل) أحسن تفصيل، حيث قسَّم نقل المسلمين إلى ستة أقسام، وأثبت أن نقـل الثقـة عن الثقـة، حتى يصـل به إلى النبي ﷺ لم يوجـد عنـد غير المسلمين، وأنَّ المبادىء الأساسية للإسلام والشريعة المنقولة عن النبي ﷺ ومايتعلق به من الأحكام، كلُّها ثابت بهذا النوع من النقل.

(٤٧) راجع الفصل في الملل والنحل / تاريخ تدوين حديث للدكتور محمد زبير الصديقي / ١٢٥.